

فرنسا وهوية بلاد شنقيط (موريتانيا) قبل استقلالها ١٩٦٠

الشيخ حماد الله (*)

توطئة :

لم يكن الاحتلال الفرنسي لموريتانيا بدعا في نوعية الاحتلال نفسه، ففي بلدان أخرى اتبع الاحتلال نفس السياسات والأساليب التي يتبعها الفرنسيون عادة في مستعمراتهم في البلاد الأخرى، في محاولة لفرض ثقافتهم على الشعوب التي يحتلون بلدانها لطمس هويتها، وتمثلت هذه الإجراءات في موريتانيا في محاربة الثقافة العربية الإسلامية سواء من خلال محاصرة أهم حاضن لهذه الثقافة وهو المحاضر أو من خلال محاولة فصل البلاد عن عمقها الحضاري في منطقة شمال إفريقيا في الوقت الذي كان يتم فيه نشر الثقافة الفرنسية، وقد مر احتلال فرنسا لموريتانيا بثلاث مراحل رئيسية، عرفت المرحلة الأولى بمرحلة الاستعمار المباشر (١٨٩٩- ١٩٤٦) حيث بدأت هذه المرحلة في كانون الأول ديسمبر ١٨٩٩م بعد صدور القانون الذي أنشأ موريتانيا الفرنسية بحدودها الحالية من طرف وزير المستعمرات الفرنسية ثم لم يلبث أن ضمها سنة ١٩٠٤م إلى إفريقيا الغربية كإقليم مدني يرأسه مندوب عام، أما المرحلة الثانية من مراحل الاحتلال فعرفت بمرحلة الاتحاد الفرنسي (١٩٤٦ - ١٩٥٨) واعتبرت فيها موريتانيا عضوا في الاتحاد الفرنسي كإقليم من أقاليم ما وراء البحار المسماة بإفريقية الفرنسية الغربية متمتعة بالكيان السياسي المستقل يتولى إدارته وال عام بيده كافة السلطات التنفيذية من

- عدد ٤٤، يوليو ٢٠١٨ ص ص ٦٧٧ - ٦٨٤ .

(*)



مدنية وعسكرية بينما يتولى السلطة التشريعية مجلس إقليمي منتخب، أما المرحلة الثالثة فعرفت بمرحلة الاستقلال الداخلي (١٩٥٨ - ١٩٦٠) وقد جاء هذا الاستقلال بعد الاستفتاء الذي اقترحه الجنرال ديغول في سبتمبر ١٩٥٨ في إطار التعديلات التي انتهجتها فرنسا بعد هزيمتها في الهند الصينية وتصاعد الثورة الجزائرية وتزايد المد التحرري بعد مؤتمر باندونغ^(١).

وخلال هذه الفترة السابقة تنوعت أساليب فرنسا في محاولاتها لطمس هوية البلاد، فرغم أن من أهم أسباب احتلال فرنسا لموريتانيا كان جعلها همزة وصل بين مستعمرات فرنسا في شمال وغرب إفريقية فإن الدلائل كلها أشارت إلى ضمها إلى مستعمرات غرب إفريقية الفرنسية كخطوة أولى من أجل فصلها عن عمقها الحضاري الشمالي ولا أدل على ذلك من أنها ظلت تدار من سان لويس في السنغال المجاور حتى تأسيس العاصمة الحالية انواكشوط سنة ١٩٥٨^(٢)، فبعد أن عجزت فرنسا عن اختراق بيئة البدو الصحراوية القاسية، فقد قررت أن تكون المنطقة الممتدة من حدود أزواد شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا ومن حدود الصحراء الغربية شمالا إلى ضفة نهر السنغال جنوبا جزءا من مستعمرات فرنسا ضمن منطقة غرب إفريقية وأن تكون مدينة سان لويس هي المركز الإداري الذي تدار منه المنطقة^(٣).

ولم تكن إجراءات حصارها لثقافة البلاد وهويتها اعتباطا أودون معرفة بها، بل في سياق معرفة تامة لهذه الثقافة فقد كتب عنها أحد الولاة الفرنسيين لغرب إفريقية قائلا : وجدنا شعبا له ماض من الأمجاد والفتوح لم يغب عن ذاكرته بعد، ومؤسسات اجتماعية لانستطيع أن نتجاهلها، ومن العجيب أننا وجدنا لدى الزوايا ثقافة رفيعة أكثر تطورا من الثقافة التي لاحظناها لدى مثقفي إفريقية الشمالية^(٤). وبناء على هذه الخلفية المعرفية اتخذت فرنسا إجراءات لحصار هوية هذه البلاد

منها التفريق بين مكوني البلد، وأوحوا إلى الزنوج أن هناك فروقا واضحة بين المسلم الزنجي والمسلم الأبيض وأن المسلم الأبيض إنما هو دخيل على البلاد ومستعمر لها، وإلغاء اللغة العربية واستبدالها بلغة المستعمر التي أخذوا في نشرها بكل الوسائل^(٥). يضاف إلى ما سبق أن السلطات الاستعمارية فرضت حصارا ثقافيا على الموريتانيين من جهة ومن جهة أخرى فرضت عليهم المدرسة الاستعمارية ووضعتها في مواجهة المحظرة.

وقد صممت خريطة البلاد ونظمت إدارتها على نحو يكفل تحقيق ما يرمي إليه الحصار الثقافي من عزل بلاد شنقيط عن محيطها الاسلامي فشذبت أطراف هذه البلاد وحولت مسالك التجارة من الشمال إلى الجنوب وحشرت بلاد شنقيط في منطقة إفريقية الغربية الفرنسية^(٦).

واتبعت فرنسا في حصارها الثقافي أشكالا عديدة منها مراقبة المشايخ والدعاة وتوطيد أركان ظاهرة جديدة تمثلت في المدرسة الفرنسية للقضاء على العطاء المحظري من جهة ولعزل البلاد عن فضائها العربي من جهة أخرى^(٧).

ومن هنا كانت جميع إمكانيات الأجنبي الحاكم المادية والمعنوية والعسكرية والتوجيهية معبأة أعظم تعبئة لمحاربة انتشار لغة الضاد في هذه البلاد^(٨).

وكانت السياسة الاستعمارية الفرنسية في مجال التعليم في مقدمة أساليب الاستعمار في فرض ثقافته، والتي كانت بالأساس أداة للهيمنة الثقافية على الشعوب المستعمرة وإحلال القيم الفرنسية والحضارة الفرنسية محل قيمها وحضارتها ومن هذا المنطلق فإن التعليم الفرنسي في موريتانيا شكل ضرورة عملية بالنسبة للفرنسيين لا لأنه وسيلة لاستلاب السكان ثقافيا فحسب بل لأنه أيضا ساهم في تكوين كوادرات الإدارة الاستعمارية الفرنسية الناشئة^(٩).

وأخذت السياسات الاستعمارية الفرنسية لطمس الهوية شكلا أكثر شراسة ووحشية في أحيان أخرى، حيث قاموا بحرق قرى بأكملها في منطقة كيدي ماغه كما قاموا بإحراق عدة مكتبات بأكملها^(١٠).

وقد امتد الحصار الثقافي الذي فرضته فرنسا على هذه البلاد وبخاصة حملة مشعل الثقافة فيها، فراقبت المشائخ والدعاة والحجاج في حلهم وترحالهم ومنعت تداول الصحف العربية الصادرة في بلاد لا تخضع للرقابة الفرنسية، وكان هذا الحظر عاما في منطقة غرب إفريقية الفرنسية^(١١).

كذلك اتخذ الحصار الثقافي الفرنسي للثقافة المحلية شكل إذلال للمدرسة العربية وإخضاعها لرقابتهم وهم في السنغال ففي سنة ١٩٠٣ م عمدت السلطات الاستعمارية إلى ممارسة مختلف الأساليب للضغط على المدارس القرآنية من تهديد بالإغلاق حفاظا على الأمن وإرغام على إجراء امتحانات للمعلمين وعلى أساس لجان للمراقبة وطرد التلاميذ الذين تتراوح أعمارهم بين ست سنوات وستة عشر عاما في أوقات افتتاح المدارس الفرنسية لينصرفوا إليها^(١٢).

ولم تتبع فرنسا أسلوب العصا فقط في محاربة الهوية في البلاد الشنقراطية فعمدت إلى اتباع أسلوب الجزرة أحيانا أملا أن تكون أجدى في اختراق جدار المحظرة المنيع فأصدرت في ١٢ يونيو ١٩٠٦ مرسوما يقضي بصرف منحة قدرها ٣٠٠ فرنك لكل شيخ محظرة أو كتاب يأمر طلابه بتخصيص ساعتين لتعلم اللغة الفرنسية ورغم ظروف المحظرة الصعبة وحاجتها المادية الماسة فإن أي شخص لم يتقدم للاستفادة من هذه المنحة ولذلك ولد المرسوم ميتا واستمرت صيغ الرقابة والحصار التقليدية^(١٣).

وهذا ما طالب به أحد الإداريين الفرنسيين في مدينة النعمة في تقريره الموجه

إلى حاكم موريتانيا حيث أكد على أنه من بين الأهداف أن نجبر رؤساء القبائل والأفخاذ على تقديم أبنائهم الكبار إلى المدرسة، وفي الوقت الحالي غالبا يقبل رؤساء القبائل الاحتفاظ بهؤلاء الأبناء ويرسلون أولادهم الصغار بدلا منهم أو حتى آخرين من الفخذ لا تربطهم بهم علاقة قرابة^(١٤).

ورغم كل هذه الأساليب التي اتبعتها فرنسا في فرض ثقافتها على السكان إلا أن ما قامت به من تغلغل ثقافي تم بصعوبة شديدة وبذلك لم تنجح فرنسا في مسعاها بحيث يمكن القول إن هذه المنطقة كانت أقل مناطق غرب إفريقيا تأثرا بالثقافة الفرنسية^(١٥).

وبالرغم من كل هذه العوامل المضادة فإن هوية موريتانيا ممثلة في أهم مقوماتها وهو اللغة الغربية بقيت صامدة واستطاعت أن تبقى وأن تترسخ وتنتشر^(١٦).

الخاتمة

على مدار تاريخ هذه البلاد كانت هناك عوامل عدة أسهمت في تشكيل هويتها بداية من السكان الأصليين من العنصرين الإفريقي والأمازيغي وماكان بينهما من تفاعل على هذه الأصقاع قبل مجيء قبائل حسان العربية إلى هذه البلاد في القرنين الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي، لكن رغم تعدد هذه العوامل بما فيها اللغوي والعرقى إلا أن انتشار الإسلام جعل بعض الساكنة يتعربون ثقافة كما في الحالة الأمازيغية في البلاد، فنتج عن التفاعل الإيجابي بين الوافدين الجدد والسكان الأصليين من الأمازيغ تعرب شبه كامل للقبائل الأمازيغية وإن تفاوت ذلك التعرب قليلا من جهة إلى أخرى، ولم تقتصر نتائج هذا التفاعل على المكون الأمازيغي فحسب بل انتقل إلى المكونات الأفريقية فأسهم في تشكيل نسيج ثقافي تؤدي فيه اللغة العربية دورا توحيدا بين النسيج الثقافي المختلف للسكان، هذا النسيج الثقافي الذي نجم عن هذا التفاعل ساعد بشكل كبير في عدم نشوب حرب بين مكونات السكان المختلفة رغم تعدد أعراقهم وتباعد أصولهم الثقافية، فانتشرت اللغة العربية بين مختلف السكان وكان الإسلام فتحا ثقافيا هو العامل الأبرز فيما حصل من تحول ثقافي في هذه البلاد.

هوامش البحث

- (1) Ba Muosa Batchily : «Le Parti du peuple Mauritanien et la construction nationale» (Thèse de doctorat < Paris Université de Paris 7 1983 page 105 .
- (٢) نصر السيد نصر: مرجع سابق ، ص ٥٠ .
- (٣) محمود شاكرو: موريتانيا بلاد شنقيط ، نشر وتوزيع مكتبة دار الفتح دمشق ، دون ذكر تاريخ الطبعة أو رقمها ، ص ٤٧ .
- (٤) الخليل النحوي: مرجع سابق ، ص ٣٣٩ .
- (٥) محمود شاكرو: مرجع سابق ، ص ٤٦ .
- (٦) الخليل النحوي: مرجع سابق ، ص ٣٣٨ .
- (٧) جدو ولد بو علي: إشكالية المثقف والسلطة ، بحث لنيل شهادة "المتريز" من جامعة نواكشوط للعام الجامعي ١٩٩٩ - ٢٠٠٠ ، ص ١٦ .
- (٨) محمد يوسف مقلد: موريتانيا الحديثة أو العرب البيض في إفريقيا ، نشر دار الكتاب اللبناني ، بيروت الطبعة الأولى ١٩٦٠ ، ص ١١٢ .
- (٩) محمد الراطي ولد صدفن: السياسات الاستعمارية الفرنسية في موريتانيا وأثرها على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية (١٩٠٠ - ١٩٦٩) طبع المطبعة الوطنية ، نواكشوط دون ذكر تاريخ أو رقم الطبعة ، ص ٨٥ .
- (١٠) محمد المختار ولد بيه: مرجع سابق ، ص ٣٣ .
- (١١) الخليل النحوي: مرجع سابق ، ص ٣٤٠ .
- (١٢) محمد يحي ولد حبيب الله: الحركة الإصلاحية في بلاد شنقيط موريتانيا بين الاستجابة للاستعمار ودفاعه ، من خلال بعض الفتاوى والوثائق ، نشر مؤسسة مربيه ربه لإحياء التراث والتبادل الثقافي ، مطبعة بني يزناس ، سلا ، الطبعة الأولى ٢٠٠٦ ، ص ٣٨٥ - ٣٨٦ .
- (١٣) الخليل النحوي: مرجع سابق ، ص ٣٤٥ .
- (١٤) محمد الراطي ولد صدفن: مرجع سابق ، ص ٩٢ .
- (١٥) نصر السيد نصر: مرجع سابق ، ص ٥٢ .
- (١٦) محمد يوسف مقلد: مرجع سابق ص ٢١٢ .

قائمة المصادر والمراجع

- جدو ولد بوعلي: إشكالية المثقف والسلطة، بحث لنيل شهادة «المتريز» من جامعة نواكشوط للعام الجامعي ١٩٩٩.
- الخليل النحوي: مرجع سابق، ص ٣٤٠. محمد يحي ولد حبيب الله: الحركة الإصلاحية في بلاد شنقيط موريتانيا بين الاستجابة للاستعمار ودفاعه، من خلال بعض الفتاوى والوثائق، نشر مؤسسة مربيه ربه لإحياء التراث والتبادل الثقافي، مطبعة بني يزناس، سلا، الطبعة الأولى ٢٠٠٦.
- محمد الراظي ولد صدفن: السياسات الاستعمارية الفرنسية في موريتانيا وأثرها على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية (١٩٠٠ - ١٩٦٩) طبع المطبعة الوطنية، انواكشوط دون ذكر تاريخ أو رقم الطبعة.
- محمد يوسف مقلد: موريتانيا الحديثة أو العرب البيض في إفريقية، نشر دار الكتاب اللبناني، بيروت الطبعة الأولى ١٩٦٠.
- محمود شاكر: موريتانيا بلاد شنقيط، نشر وتوزيع مكتبة دار الفتح دمشق، دون ذكر تاريخ الطبعة أو رقمها.
- Ba Muosa Batchily : « Le Parti du peuple Mauritanien et la construction nationale » (Thèse de doctorat < Paris Université de paris 7 1983.